فلسفة المعتزلة

للدكتور ألبير نصري نادر

إن المعتزلة يمثلون سلسلة من المفكرين المسلمين تبدأ بواصل ابن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ أي ٧٤٨ م وتمتد إلى أبي هاشم بن الجبائي المتوفى سنة ٣٢١ هـ أي ٩٣٣ م وهو أستاذ أبي الحسن الأشعري رأس الأشاعرة.

بعد الأبحاث التي قام بها الفريد والشرقيون، وبعد ما كُتب عن المعتزلة بقي أن نبين طريقتهم الفلسفية وأن نستخرج الأصول التي بنيت عليها. هذا ما حاولنا أن نفعله في الرسالة الكبرى التي تقدمنا بها إلى حضرات أساتذة جامعة السربون بباريس وعنوانها فلسفة المعتزلة.

الأصل الأول والعام لهذه الفرقة التي توصلنا إليه بعد كل ما طالعناه من مراجع، هو أن العقل البشري عند ما يكتمل نضوجه يمكنه أن يتوصل إلى معرفة الحقائق الكبرى الأولى وهي:

أولا: أن وجود العالم يدل حتما على وجود كائن أسمى متعال منح العالم هذا الوجود.

ثانيا: أن الإنسان يفعل حراً وهو مسئول عن أعماله محاسب عليها.

لذلك قسمنا الرسالة إلى قسمين كبيرين: أحدهما خاص بالتوحيد وما يتعلق به من مسألة الخلق، والآخر خاص بالحرية عند الإنسان وما يترتب عليها.

في القسم الأول بينا أن المعتزلة لا تقول بأي مشابهة أو تمثيل بين الله والعالم من جهة، ومن جهة أخرى هم يقولون بالذهب الوجودي، فلا نعرف عن الله سوى حقيقة واحدة هو أنه موجود، ولكن ماهيته لا يمكننا إدراكها لأنه غير متناهٍ ونحن متناهون. ثم إن ماهيته هي علمه وقدرته وإرادته. وإذا ما تكلمنا عن صفاته تعالى فهذه الصفات لا توجد حقيقة فيه بل هي اعتبارات ذهنية نلجأ إليها لضعف عقلنا. ونتيجة لمنع المشابهة بين الله والعالم المخلوق قالت المعتزلة إن الله لم يخلق ماهية العالم بل إنه وهب الوجود فقط للماهية كانت في حالة العدم. وحسب قولهم هذا يصبح المعدوم شيئاً وذاتاً وعيناً ينقصها الوجود فقط. وهذه نتيجة منطقية لقولهم بالمذهب الوجودي ومؤداه أن لكل فكرة مقابل في الحقيقة. ففكرة المعدوم تقابلها حقيقة.

ذهبت المعتزلة إلى هذه النتيجة لأنهم كانوا يريدون أن يصونوا فكرة التوحيد من كل شرك ومن كل مذهب حلول؛ وهم يفتخرون بأنهم أهل توحيد — وقولهم إن العالم لا يستمد ماهيته من الله بل يستمد منه وجوده فقط يدلنا على أنهم تأثروا بعض التأثر بالفلسفة الأرسطوطالية ولا سيما فيما يختص بفكرة الهيولى، وهي عند أرسطو المادة الأولى التي لا صورة لها والتي يقول عنها إنها قديمة وأنها الماهية الأولى للعالم. وفي هذه الناحية تقول إن القسط الأكبر من مؤلفات الفلاسفة والطبيعيين اليونانيين ترجمت إلى السريانية والعربية في عهد المعتزلة؛ ويكفينا أن نذكر «دار الحكمة» في عهد الخليفة المأمون وعلى رأسه حنين بن إسحق.

إن المعتزلة متفقون على تفسير خلق العالم هذا التفسير وهو أصل أساسي في مذهبهم؛ ولكن هناك مسائل تعد ثانوية في نظرهم تختلف آراؤهم فيها. إذ بينما نرى مثلا أبا الهذيل العلاف يقول بالجوهر الفرد أي الذرة، نجد النظام يقول إنه لا جزء وإن تقسيمه جائز ولو بالوهم. وبناء على هذا القول كان النظام أول من قال بالطفرة في الفلسفة الإسلامية؛ ومعناها أن الجسم يمكنه أن يمر من مكان أول إلى مكان ثالث أو رابع بينها أجزاء غير متناهية في القسمة وذلك بأن يطفر من الأول إلى الثالث أو الرابع.

الأصل الثاني في فلسفة المعتزلة هو الحرية عند الإنسان. فهم يقولون إن العقل عند ما يكتمل نضوجه يمكنه أن يصل إلى إدراك الحقائق الأولى التي يسترشد بها الإنسان في أعماله، وذلك قبل أي تنزيل. ثم إن الإنسان حر أن يعمل بمقتضاها أو لا. فإذاً معرفة الخير والشر وما يترتب عن الأعمال من مسئولية وجزاء كلها مسائل يدركها العقل المكتمل. وإذا ما جاء تنزيل فلا يجوز أن يناقض ما يدركه العقل في هذا المضمار بل يجب أن يقويه ويدعمه.

جزأنا هذا الأصل أيضاً جزءين: أحدهما خاص بعلم النفس — وكلهم المعتزلة في دراسة النفس هو البرهنة على حرية الإنسان

في عمله ؛ وهم يردون بكل حماس على الجبرية ؛ فالعقل في مذهبهم دور أخلاقي مهم يقوم به وهو التمييز بين ما هو خير وما هو شر بواسطة النظر . والجزء الثاني خصصناه للمسألة الأخلاقية . إنهم يقولون إن الخير خير في ذاته ، وأن الشر شر في ذاته ، وليس بموجب إرادة خارجية حتى ولو كانت إرادة إلهية . هذه النظرية سيكون لها أهميتها عند دانس سكوت والقديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر ، ورأي المعتزلة فيها هو رأي توماوي قبل القديس توما بحوالي ثلاثة قرون .

عندما يصل العقل إلى معرفة الشريعة يكون الإنسان حراً أن يفعل بمقتضاها أو لا يفعل . فحينئذ تظهر مسألة المعاصي والفسق ؛ ولكن المعتزلة لا يبدون حكماً على الظواهر (أي أعمال الإنسان الخارجية) لأنها لا تدل على ما تكنه القلوب ؛ لذلك يلزمون التحفظ في الحكم على أعمال الغير .

ولما كان الإنسان يأتي المعصية حراً فيمكنه أيضاً أن يتوب منها . ولكن المعتزلة يضعون شروطاً للتوبة حتى تكون مقبولة . فيقولون إنها لا تجوز إلا إذا ندم الإنسان على فعله وعزم على أن لا يأتي بمثله . ولكن ألا يمكن أن يتدارك الله الفاسق بلطف ويساعده حتى يصبح مؤمناً ؟ إنها لمسألة دقيقة ولكن المعتزلة قالت : إذا وهب الله ذا الكبيرة أي الفاسق لطفاً من عنده ليؤمن جاز أن تقول أنه يهيء كفراً للمؤمن ليصبح كافراً . ويزيدون على ذلك قائلين إن من آمن حراً فضله أكبر من فضل الذي وهب لطفاً ليؤمن ، ومع ذلك لا ينكرون أن الله يهب أحياناً لطفه لبعض الناس ليؤمنوا ولكنها حالات شاذة .

بقي أخيراً مسألة الجزاء . فإن المعاصي تجلب حتماً العقاب ؛ كما أن العمل الحسن يجلب حتماً الثواب . والعقل يدل على ذلك ويطلبه . ولكن في هذا العالم لا يوجد تكافؤ بين الأعمال وجزائها أو عقابها فيجب أن يصير هذا التكافؤ في عالم آخر . وعليه فالجنة والنار لازمتان .

فها نحن أولاء بصدد فلسفة كاملة متماسكة الأجزاء :

النقطة الأولى : الله متميز تمام التميز عن العالم — ليس بينه وبين العالم أي مشابهة أو تمثيل .

العالم كان في حالة عدم — العالم لا يستمد من الله إلا الوجود

النقطة الثانية : المسألة الأخلاقية — في عالم خاضع لقوانين ثابتة لا يمكنه رد نظرية الجبر وجعل الإنسان مسئولاً عن أعماله إلا إذا كان حائزاً على ملكة خاصة تمكنه من تمييز الخير من الشر كما يجب أن يكون حراً في قصده وعمله .

لذلك سميت المعتزلة أهل توحيد وأهل عدل .

هذا المجهود الفكري مدة قرنين متتاليين فتح الطريق للفكر الإسلامي . وأثر المعتزلة سيكون بيناً واضحاً عند الفلاسفة المسلمين المعاصرين أو اللاحقين لهم مثل الكندي والأشعري .

لذلك سيناهم فلاسفة الإسلام الأسبقين .

البير نصري نادر
دكتور في الآداب والفلسفة

إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة

الإعلان الأول

تعلن إدارة الكهرباء والغاز لمدينة القاهرة أنه لما كانت عقود الاشتراك المبرمة مع شركة الغاز ليبون قبل أيلولة عملية الإدارة إلى الحكومة المصرية في أول يناير ١٩٤٩ قد انفسخت بانتهاء أجل الامتياز الممنوح للشركة المذكورة في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وأصبحت الإدارة غير مقيدة بأحكامها .

فقد أعدت الإدارة عقوداً جديدة ترتبط على مقتضاها تدريجياً ، على أنه ريثما يتم ذلك ستقوم الإدارة بتنفيذ أحكام العقود المبرمة مع شركة الغاز ليبون كلما كان تنفيذها مستطاعاً غير متعارض مع مقتضيات المصلحة العامة .

٢٤٢٦